من طبائع الأشياء (1)

المعرفة هي صناعة الإنسان، والجهل داؤه، والعلم ترياقه.

من خلال الملاحظة وتراكم الخبرات والاستبصار والخيال وقراءة الأحداث واكتشاف العلاقات بين الأشياء ومعرفة سنن الله – تعالى- في الخلق من خلال كل ذلك نبني معارفنا، نكوّن انطباعاتنا، وننظم بالتالي مواقفنا وردود أفعالنا.

المعرفة عبارة عن معلومات، والعلم معارف منظمة ومبوبة. والعالم سواء أكان كبيراً أم صغيراً يشتغل على الجزئيات إدراجاً واستنباطاً على الكليات واستكشاف القوانين والوقوف على الملامح العامة، وشغوف بصناعة المفاهيم الكبرى وصياغة مناهج البحث ومناهج التفكير، وإذ كنا في حاجة إلى كل من العالم والمفكر؛ فإن على كل واحد منهما ألا يقلل من شأن الآخر بل عليه أن يعترف به، ويحاول الاستفادة من عطاءاته.

فقه السنن وفهم طبائع الأشياء، من الأعمال العظيمة التي يحق للمرء أن يغتبط، ويبتهج إذا حقق فيها نجاحاً عظيماً، لأن ذلك يدل على استقراء ممتاز للوقائع المتفرقة، كما يدل على شفافية عالية وخيال خصب قادر على ضم النظير إلى النظير، والخروج من سجن الجزئيات والرؤى الذرية المبعثرة.
وإن مما يؤسف له أن المهتمين بالفهم الكلي قليلون دائماً بسبب مشقة العمل في هذا المجال وحاجته إلى إمكانات ذهنية، قد لا تتوفر لدى كثير من الناس.

فهم طبائع الأشياء قد يحتاج إلى أن نهتم على نحو عميق بملاحظات النابهين جداً من كبار الاختصاصيين، ثم نحاول التفريع عليها وإضافة ما نمكن إضافته إليها. حين نعرف السنن التي تحكم مجالاً أو عملاً أو علاقة ما؛ فإن ذلك يجعلنا كمن يكتشف سبلاً عامة عريضة، تتفرع عنها دروب صغيرة. وآنذاك فإننا نستطيع التفريق بين المطرد والشاذ، والمألوف وغير المألوف، والطبيعي وغير الطبيعي؛ كما نستطيع التفرق بين المطَّرد والشاذ، والمألوف وغير المألوف، والطبيعي وغير الطبيعي؛ كما نستطيع أن نثمن المعلومات الواردة عن ذلك المجال، وأن نكتشف ما يمكن أن يكون قد دخلها من زيف وتزيد.

وأنا هنا أحاول أن أوضح بعض طبائع بعض المجالات المعنوية والحياتية؛ وينبغي أن يؤخذ كل ما أقوله هنا على أنه مقاربة واستشراف ليس أكثر.

1- المجال الفكري:

التفكير هو: اشتغال العقل على بعض المعلومات من أجل الوصول إلى أمور مجهولة. ومن طبيعة هذا المجال الآتي:

– صدور المفكر عن رؤية جانبية، إذ مهما كان العقل متيقظاً ومدرباً، ومهماً كان خياله واسعاً، وكانت معارفه عميقة وشاملة؛ فإنه لا يستطيع أن يحيط بكل الأمور المتعلقة بالقضايا التي يفكر فيها، أي أن المقدمات التي ننطلق منها إلى بلورة حكم أو الحصول على نتيجة معينة، ستظل مقدمات ناقصة.

ولو أننا استشرنا أفضل مركز دراسات متخصص في مشروع من المشروعات أو مشكلة من المشكلات، لما صدر إلا عن رؤية جزئية. ورحم الله الإمام مالك بن أنس حين كان يستشهد عن إفتائه في مسألة من المسائل بقوله- سبحانه – (إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين).

– وجود الأخطاء في المجال الفكري أمر طبيعي وكثير الانتشار، وذلك لأن العقل وهو يعمل على الوصول إلى بعض الرؤى والمحكات والأحكام... يُتيح الأخطاء والأوهام بسبب هشاشة المقدمات والأسس التي يبني عليها أو بسبب سوء التقدير لطبيعة العلاقة التي تربط بين الأسباب والمسببات والمقدمات والنتائج. وهذا يتطلب منا أن نكون دائماً يقظين للمنتجات الجانبية لعمل العقل، كما يجعلنا في حاجة دائمة لمراجعة طروحاتنا وأفكارنا.

– كثيراً ما يصاب المشتغلون بالقضايا الفكرية بالجفاف الروحي، ولست أعرف الأسباب الأكيدة لهذا، لكن ربما كان ذلك بسبب أن الإشراق الروحي يحتاج إلى جهد تعبدي عملي، على حين أن المشتغلين بالقضايا الفكرية يكونون عادة مشغولين بالتنظير واكتشاف الأسباب والعلل. وأحياناً يؤدي إدمان التنظير إلى شيء من الترهل الروحي بسبب أنه يجعل صاحبه أكثر تفهماً للواقع، وبالتالي أكثر خضوعاً له. وهذا يؤدي إلى انخفاض في درجة التسامح والذي يعد حجر الأساس في التفتح الروحي؛ وعلينا أن ننتبه إلى هذا.

– من أعمدة العمل الفكري الاختزال والتخبط، حيث يتشوق المفكر إلى استخلاص بعض القوانين والمقولات العامة من أكوام المعلومات والمعطيات الجزئية، وينتج عن هذا القيام بتحييد الكثير من الأقوال والمعلومات الموثوقة؛ فالبناء الفكري بطبيعته – كما هو شأن البناء التاريخي- هو بناء انتقالي. وأثناء عملية الانتقاء تتم الاستهانة بأمور ومعطيات قد تكون جوهرية وحيوية. هذا بالإضافة إلى أن المفكر بسبب اشتغاله بالأمور الكلية يزهد عادة بكل ما هو جزئي وفرعي.

وأتصور أن علم (مقاصد الشريعة) لم يتم، ولم يتبلور بالشكل الكافي؛ لأن الذين اشتغلوا على إنضاجه لم يكونوا من المشتغلين بالفلسفة الكلية للتشريع، كما أن خبرتهم بفقه الأولويات كانت ضئيلة؛ مما جعل قدرتهم حيال دمج بعض النصوص الصحيحة في المرامي للشريعة السمحة محدودة في المجال الفكري يتألف العقل وتبرق اكتشافاته، وهذا يجعل المشتغلين بالفكر يشعرون بنوع من الوثوقية الزائدة، فيطلقون الأحكام في أحيان كثيرة من غير قدر كافٍ من الرؤية والتأمل. وكم عانينا من موجات النقد غير الأصيل وغير المحكم بسبب الإفراط في الثقة بما لدينا من أفكار ومفاهيم، هي في كثير من الأحيان تقبل الجدل والمراجعة.

2- المجال الروحي: المكمن الحقيقي للذات الإنسانية، هو الروح والمشاعر والعواطف وليس العقل والأفكار والمفاهيم. وقد دلتنا الخبرة على أن المجال الروحي شديد الجاذبية، وهو يملك قدرة هائلة على جعل الناس يتجاوزون الضوابط والحدود التي يضعها العقل؛ بل تلك التي يضعها الشرع أيضاً، وإذا تأملنا في أقوال وسلوكات كل أولئك الذين حدثنا التاريخ عن إعزافهم في المسائل الوجدانية والروحية وفي قضايا الأحوال والمقامات والكرامات والتجليات والنفحات...؛ لوجدنا أنهم – إلا النذر القليل- قد استهلوا تجاوز النصوص الشرعية، أو صاروا إلى تأويلها على نحو لا يخلو من الفجاجة والتعسف .

إن المشاعر الجياشة التي قد يجدها بعض العباد كثيراً ما تقوم بدور المخدر أو المعطل لملكة العقل، والمعطل لدور النصوص والأحكام الشرعية في توجيه سلوك المسلم وضبط مقولاته. وهذا ليس خاصاً بالمسلمين ولا بأهل أية ملة من الملل، بل هو عام يشمل كل أو جلّ من يشتغل بالمسائل الروحية والوجدانية، وقد عانت الأمة كثيراً من أهل (الشطحات) الذين كانوا يلقون بالكلام على عواهنه استجابة للخواطر والوساوس والأوهام والرؤى المنامية. ومن هنا؛ فإن على كل من يهتم بالشأن الروحي أن يحرص الحرص كله على أن يظل في إطار المشروع، وألا يغضّ الطرف عن الرؤية الفقهية كما يصدر عنه من أقوال وأعمال.

المجال الروحي يوفر لكل من يدخله درجة عالية من الطمأنينة والسرور والانشراح؛ ولا عجب إذ إن الصلة بالله – تعالى- ومناجاته والتودد والتذلل إليه لا تأتي بغير هذا؛ لكن الملاحظ أن هذه الدرجة من الجور تدفع من يتمتع بها إلى الانطواء على نفسه والميل إلى العزلة والاستخفاف بما يجري في المحيط الخارجي من أحداث، وقد كان من الأدبيات المشهورة لدى العباد والزهاد أو طائفة منهم على الأقل أن من علامات ولاية الشخص أو من أسس الولاية الذكر والصمت والعزلة والجوع. ومن هنا؛ فإن المسلم مطالب إلى جانب تزكيته لنفسه وتطهيره لقلبه وصقله لروحه بألا يندفع من حيث لا يدري إلى تضييع الواجبات الاجتماعية والدعوية، وحتى لا يقع في هذه المصيدة؛ فإن عليه أن يتذكر أهدافه وواجباته.